الفصل الثاني

صناعة التاريخ بين دور الأبطال ودور الشعوب

- تمهيد
- أولًا: البطل صانع التاريخ
  - كارلايل ونظرية البطولة
  - سدني هوك ينتقد نظرية كارلايل
  - موقف هيجل من نظرية البطولة
- ثانيًا: الشعب (الجماعة) هو صانع التاريخ
  - الحضارة الإسلامية أساس التحول
  - ڤولتير يؤكد هذا التحول نحو التأريخ للحضارة
  - إشفيتسر يدعم هذا التوجه الحضاري

الفصل الثاني

صناعة التاريخ بين دور الأبطال ودور الشعوب

تمهيد

لعل من أهم القضايا التي عالجها فلاسفة التاريخ تلك القضية التي يثيرها التساؤل عمن يصنع التاريخ؟!

ولعل أحدنا يسرع فيقول، وماذا في هذا التساؤل؟ إن الإنسان هو الذي يصنع تاريخه، وبالطبع فإن من أثاروا السؤال يعون جيدًا هذه الإجابة. فمن المسلم به ومن المعروف أن التاريخ الإنساني صناعة إنسانية في جميع مظاهره وأحداثه.

لكن السؤال هنا يعني: من له الدور الأهم والأعظم في صناعة هذا التاريخ: هل الأفراد وخاصة العظماء منهم أي الزعماء والقادة العسكريون الأفذاذ الذين امتلكوا القوة والقدرة على تغيير مجرى الأحداث في عصورهم؟

أم أن الشعوب عامة هي التي تصنع تاريخها بما يقدمه كل فرد فيها في إطار دوره المرسوم وفي إطار وظيفته التي يؤديها سواء أكان طبيبًا أو مهندسًا أو حتى مزارعًا أو خفيرًا؟!

من يصنع التاريخ؟ هل إنجازات الكتلة البشرية لأية أمة مجتمعة أم إنجازات الأفراد العظام فيها؟ ومن هؤلاء العظام الذين يصنعون التاريخ؟ هل هم الزعماء السياسيون أو القادة العسكريون أم العلماء والمفكرون؟!

اختلفت إجابات المؤرخين أو الفلاسفة حول هذه التساؤلات وخاصة بعدما بالغ البعض في دور الفرد البطل في صناعة التاريخ، وانقسم المؤرخون والفلاسفة فريقين، ففريق يقدر دور البطل ويعتبره فارس التاريخ والقادر وحده على تغيير مساره، وفريق يرى العكس؛ أنه ينبغي التركيز على فهم دور الشعب بكافة طوائفه ومهنييه فهم صانعو التاريخ الحقيقي لأمتهم.

أولًا: البطل صانع التاريخ

1 ـ كارلايل ونظرية البطولة

كتب توماس كارلايل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كتابه الشهير «الأبطال وعبادة البطولة» وقدم فيه هذه الرؤية التي ترى أن البطل هو الذي يصنع تاريخ أمته وأكد «أن التاريخ العام وتاريخ ما أحدثه الإنسان في هذا العالم إنما هو تاريخ من ظهر في الدنيا من العظماء، فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا، وأن كل ما بلغه العالم وكل ما تراه قائمًا في هذا الموجود كاملًا متقنًا فاعلم أنه نتيجة أفكار هؤلاء العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدي كل ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير، فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول[1].

لقد اعتبر كارلايل أن التاريخ الإنساني إنما هو تاريخ هؤلاء العظماء، وأن تاريخ هؤلاء الأبطال إنما هو «مخ تاريخ البشر وصميم لبابه» على حد تعبير الترجمة العربية[2].

---

(1) توماس كارلايل: الترجمة العربية لمحمد السباعي، نشرة كتاب «الهلال» العدد 326 فبراير 1978م، ص 7.

(2) نفسه، ص 8.

وإذا ما دققنا النظر في النص السابق لكارلايل سنجد أنه يرى أن البطولة في التاريخ تكتسب أهميتها من عدة زوايا، أولها: أن هؤلاء الأبطال هم صانعو تاريخ البشرية، وثانيها: أنهم يتحلون في أعمالهم العظيمة بالدقة والإتقان والشجاعة، وثالثها: أنهم مرسلون من قبل الله وأن العناية الإلهية هي التي تصطفيهم، وهي التي ترسلهم ليقوموا بأعمالهم العظيمة في التاريخ البشري، ورابعها: أنهم ـ لكل ما سبق ـ يمثلون القدوة بالنسبة لكل البشر الأخرى؛ ومن ثم كانت نظرة الناس لهم نظرتهم للقديسين والمصلحين، وخامسها: أنهم ـ حسب اعتقاده ـ يمثلون جوهر التاريخ الإنساني باعتبارهم عقل هذا التاريخ المفكر وصانع أحداثه.

والحقيقة أن نظرية كارلايل عن البطولة قد وسعت من مفهومها التقليدي لدى المؤرخين التقليديين الذين كانوا عادة ولا يزالون يركزون على البطولة بمفهومها السياسي أو العسكري إذ إننا عادة ما نقرأ للمؤرخين عن إنجازات الزعماء السياسيين باعتبارها الإنجازات الكبرى التي لم ولن يستطيع أن يفعلها غيرهم وأنهم بأفعالهم السياسية هذه أشبه بالملهمين وأن كل ما قاموا به هو الأفضل وهو بوابة التقدم والارتقاء لشعوبهم... إلخ. وكذلك الحال حينما يؤرخون لبطولات القادة العسكريين، فهم عادة ما ينظرون إلى كل انتصار حققه هذا القائد العسكري أو ذاك ممن يؤرخون لهم على أنه انتصار الأفذاذ، وعادة ما يرجعون هذه الانتصارات إلى التوجيهات الملهمة لهؤلاء القادة والتعليمات والتخطيط المحكم الذي أبدعوه وبفضله تحققت الانتصارات وألحق الهزائم بالأعداء!!

لقد وسع كارلايل من هذا المفهوم الضيق للبطولة وقصرها على المجالين السياسي والعسكري حينما عدد في كتابه السابق الإشارة إليه في ست صور للبطولة: البطل كإله، البطل كنبي (وقد اختار هنا النبي ﷺ محمد حيث عدد ببراعة أسباب اختياره من بين الأنبياء الآخرين)، البطل كشاعر (دانتي، وشكسبير)، البطل كقسيس (لوثر ونوكس)، البطل ككاتب

(جونسون وروسو)، وأخيرًا البطل كزعيم سياسي أو كملك أو كقائد عسكري (كرمويل ونابليون)[1].

وهكذا فقد نجح كارلايل في توسيع دائرة البطولة بحيث لم تعد مقصورة على بطولة الملوك أو الزعماء السياسيين ولا القادة العسكريين، وبهذا فقد اقترب كارلايل من دائرة وجهة النظر المقابلة التي ترى أن الإنجازات الحضارية للشعوب ككل هي صانعة التاريخ، لكن المشكلة الحقيقية التي واجهت نظريته أنها جاءت في وقت بدأت فيه أوروبا ترسخ مبادئ الديمقراطية السياسية وتؤمن بضرورة تداول السلطة السياسية وبالدور المهم الذي يلعبه كل فرد في المجتمع وليس فقط الزعامات السياسية أو القيادات العسكرية ومن ثم واجهت هذه النظرية انتقادات حادة وكثيرة.

2 ـ سدني هوك ينتقد نظرية كارلايل

وقد جاءت معظم هذه الانتقادات من الظروف المأسوية التي ربما عانتها أوروبا من فعل أحد أو بعض رجالاتها مثل هتلر وموسوليني، وكان أبرز نقاد هذه النظرية هو كارلايل سدني هوك في كتابه «البطل في التاريخ».

وقد أكد هوك في البداية على حقيقة دور الزعامة والبطولة في التاريخ على أساس أنه لا يمكن بأي حال الاستغناء عن الزعامة في كل حياة اجتماعية وفي كل شكل أساسي من أشكال التنظيم الاجتماعي، فضلًا عن أن هناك نزعة طبيعية عند الجميع للربط بين الزعيم وبين النتائج المحققة في ظل زعامته حتى إذا كانت تلك النتائج قد حدثت على الرغم من زعامته أكثر من كونها قد حدثت بفضلها[2].

(1) سدني هوك: البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت 1959م، ص 13 ـ 14.

(2) راجع نص المحاضرة الثانية من كتاب كارلايل السابق في نفس الترجمة العربية، ص 57 ـ ص 97.

وقد أرجع ذاك الإيمان بأهمية البطل في التاريخ وسيادة هذا الاعتقاد في العصر الحديث إلى أسباب عدة منها:

(أ) التقدم العلمي في أسباب المواصلات مشفوعًا بالتقدم الذي رافقه في الدراسات النفسية الحديثة لابتداع الإيحاء والإيمان به، لقد ساعد هذا التقدم في وسائل المواصلات وفي الدراسات النفسية الإيحائية على خلق حماسة وعبادة للزعماء عند الجماهير تجاوزت كل مثيل لها في العصور السابقة.

(ب) السيطرة الكاملة لهؤلاء الزعماء على ميكروفونات الإذاعة ولم يكن بعد قد اخترع التليفزيون الذي ساهم أكثر من الإذاعة في ذلك، وعلى المطابع؛ فقد جعلت الكلمة المسموعة والكلمة المقروءة ومديح أصحابها الدائم إلى التهليل الشعبي بأهمية الزعيم وصناعة زعامته بين عشية وضحاها. إن وسائل الإعلام هي التي تصنع هذه الزعامات، فعلى حد تعبير هوك «منذ اللحظة التي يصل فيها الزعيم إلى الحكم تطبل أجهزة الدعاية وتزمر لجهوده باعتباره السبب المباشر في كل الإنجازات الوضعية فإذا ما أخصبت المواسم فإن الفضل في ذلك ينسب إليه أكثر مما ينسب إلى عوامل الطقس، وبالمثل فإن الحالة التاريخية التي سبقت مجيئه للحكم تقدم للجمهور ليس كنتيجة لأسباب اجتماعية واقتصادية وإنما كنتيجة لمؤامرة وخيانة حاك خيوطها الأشرار[1].

(جـ) وربما يكون من هذه الأسباب أيضًا عند هوك أن الناس عادة ما يتطلعون في عصور الأزمات السياسية والاجتماعية إلى من

(1) سدني هوك: البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت 1959م، ص 20.

ينقذهم، فحينما يتطلب الأمر فعل شيء سريع يتزايد اهتمام الناس بالبطل ومهما كانت ألوانهم السياسية أو انتماءاتهم الحزبية فإن الأمل في حل الأزمة مرتبط ومقترن بالأمل في ظهور زعامة قوية قادرة على معالجة المصاعب والأخطار، وكلما اشتدت الأزمة حدة اشتد طلب الناس لهذا الرجل المنقذ أو لذلك الفارس القادم على ظهر جواده أو لذلك النبي أو المصلح الاجتماعي أو ذلك الثوري العالم وفق المفردات التي يتنادى بها الناس في هذا الحزب أو ذاك[1].

وبالطبع فإن أولئك يؤمنون بالجبرية الاجتماعية أو بالحتمية التاريخية من جميع الجبهات لا يستطيعون كتابة التاريخ دون أن يعترفوا ويقروا ـ على حد تعبير هوك ـ بأن بعض الأفراد في بعض اللحظات الحرجة يلعبون دورًا حاسمًا في إعادة توجيه الموجة التاريخية، وذلك على الرغم من أنهم يؤمنون ـ كما يضيف هوك ـ في أحكامهم النظرية بأن كل فرد مهما كان مقامه ليس إلا قشة تطفو على وجه الموجة التاريخية[2].

وقد انتقد هوك هؤلاء الجبريين المؤمنين بالحتمية التاريخية في تناقضاتهم الفاضحة بين الإيمان النظري وبين ما يردده بعضهم عن بعض، فبالرغم من كلامهم عن المحتوم الذي لا مناص منه فإنهم لا يذعنون لهذا المحتوم عندما لا يكون على هواهم[3]. كما انتقدهم في نظرتهم التأويلية لضرورة وجود الزعيم ليلعب الدور الحاسم والفاعل في التاريخ إبان الأزمات الحرجة التي تمر بها شعوبهم بقوله إنه لم تقم أية فترة لم يعتبرها

(1) نفسه، ص 21 ـ 22.

(2) نفسه، ص 22.

(3) نفسه، ص 22.

بعض معاصريها بأنها حرجة[1]. إن التاريخ لأي شعب، ولأية أمة إنما هو سلسلة من الأزمات المتعاقبة وإذا ما فتح المجال للقول بأن الزعيم ضروري وحتمي لحل الأزمة وأنه بدونه لن تحل فسيكون كل ما مر على الناس من حكام يعدون في عداد الزعماء أو الأبطال!

فضلًا عن أنه إذا كانت صناعة الزعامة مترتبة على أنه هو القادر على حل الأزمة فإنه سرعان ما يمكن لأي حاكم أو لأي قائد أن يصور لشعبه عن طريق أجهزة دعاية أنهم يعيشون عصرًا متأزمًا وأن هذه الأزمات سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية إنما تحتاج لشجاعته وتحتاج لقدراته الفذة على تجاوزها ومن ثم تظل عيون الناس وعقولهم مترقبة لأفعال هذا الزعيم الملهم؛ وما هو كذلك لأن كل عصر وفي كل الأوقات ستجد أن الناس تعيش الأزمات وربما يكون هؤلاء الزعماء أو من صوروا أنفسهم هكذا هم أسباب هذه الأزمات وليسوا أدوات حلها أو التغلب عليها أو تجاوزها.

إن البطل الحقيقي في التاريخ ـ فيما يرى هوك ـ هو الفرد الذي نستطيع أن ننسب إليه ـ ولدينا المبررات الكامنة لذلك ـ نفوذًا طاغيًا مؤثرًا في تقرير حدث ما ربما اختلفت عواقبه اختلافًا عميقًا عما هي عليه لو أنه لم يتصرف فيه بالشكل الذي تصرف به[2]، وفي تلك المقولة السابقة أعطانا سدني هوك معيارًا جيدًا للحكم على فعل البطل في التاريخ فإن كان هذا الفعل فعلًا أصيلًا وبطوليًا حقًا ستكون نتائجه مختلفة عما كانت ستسير إليه الأمور لو تركت دون هذا الفعل من ذلك الفرد البطل! إن الرجل الذي تحفل حياته بالأحداث التاريخية هو أي رجل أثرت أفعاله على التطورات التالية لها بشكل مغاير تمامًا للشكل الذي كانت ستأخذه لو لم تصدر تلك الأفعال

---

(1) نفسه، ص 27.

(2) نفسه، ص 154.

عن ذلك الرجل. إن الرجل الصانع للأحداث تكون أفعاله هي نتائج طاقات وملكات ذكاء حادة وإرادة قوية وشخصية بارزة أكثر مما هي نتائج وحوادث عارضة ناجمة عن مركزه[1].

3 ـ موقف هيجل من نظرية البطولة

أما هيجل فقد قدم لنا رؤية شاملة عن الدور الحقيقي لأبطال التاريخ في ضوء نظريته الخاصة في تفسير التاريخ، إن أبطال التاريخ ـ في رأيه ـ هم أولئك الذين تتوافق غاياتهم الخاصة وأفعالهم البطولية مع إرادة روح العالم، فهم يسمون أبطالًا بمقدار ما يستمدون أغراضهم ودورهم لا من مجرى الأحداث الهادئ والمنظم الذي يباركه النظام القائم وإنما من منبع خفي لم يبلغ بعد مرحلة الظهور أو الوجود الحاضر من تلك الروح الداخلية التي لا تزال مخفية تحت السطح تضغط على العالم الخارجي وكأنها تضغط على قشرة خارجية وتمزقه إربًا لأنها نواة أخرى غير تلك النواة الموجودة في هذه القشرة[2].

إن هيجل إذن يقر بالدور الفاعل للبطولة في التاريخ، فالأبطال هم من يقومون بتحويل الإمكانات الكامنة في الأحداث التاريخية إلى واقع عملي، إنهم إذن لم يخلقوا الأحداث خلقًا وإنما تفاعلوا مع الخفي الذي تريده روح العصر الذي يعيشونه وأظهروه، أو بالأحرى سارعوا بإظهاره. إن فعلهم إذن ليس عكس منطق الأحداث التاريخية وليس تحويلًا لها أو تمردًا عليها، وإنما هو الفعل الموافق للإرادة الكلية للتاريخ وإن كانوا قد ركزوا جهودهم في الإسراع بتحقيق هذه الإرادة ولذلك فإن رجالات التاريخ أو أبطال عصر

(1) نفسه، ص 155.

(2) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ (العقل في التاريخ) ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1974م، ص 101 ـ 102.

ما ـ على حد تعبير هيجل ـ لابد أن يعدوا حكماء عصرهم ولابد من النظر إلى أعمالهم وإلى كلماتهم على أنها خير ما عمل وأفضل ما قيل في العصر... إنهم رجال عظماء لأنهم أرادوا وأنجزوا شيئًا عظيمًا لا مجرد خيال أو مجرد نية بل شيئًا ضروريًا لبى متطلبات العصر[1].

إن هيجل إذن يقدر دور الأبطال والرجال العظام في التاريخ ويهاجم أولئك الذين يقللون من شأن دورهم في التاريخ ويتهمونهم بأنهم لا يعملون ما يعملون إلا مدفوعين بالرغبة في الشهرة والمجد؛ وهم في سعيهم إلى تحقيق هذا المجد وتلك الشهرة إنما يرتكبون أفعالًا لا أخلاقية. إن هيجل يرى أن علماء النفس والمؤرخين الذين يهاجمون الأبطال بالشذوذ وبارتكاب الأفعال اللاأخلاقية فاتهم أن هذه الأفعال سمة مشتركة بين البشر جميعًا ولا ينبغي أن نركز عليها على أنها أفعال لهؤلاء الرجال العظام وحدهم، فالشخص البطل إنما هو إنسان يتصرف كبقية البشر[2]، كما أن الفرد البطل ـ في رأي هيجل ـ من عظماء التاريخ ليس من الحمق بحيث ينغمس في رغبات مختلفة يشتت بها اهتماماته لأنه مكرس لهدف واحد بغض النظر عن أي اعتبار آخر، بل إنه من الممكن أن ينظر هؤلاء الرجال إلى الاهتمامات العظيمة بل المقدسة أحيانًا بغير اكتراث[3]، وكل ذلك من أجل تحقيق الأهداف الطموحة والأفعال الخالدة التي يسعون إلى تحقيقها.

أما القول بأن أولئك الأبطال إنما يفعلون ما يفعلون لتحقيق طموحاتهم الذاتية فقط، فهذا ما يرى فيه هيجل عدم فهم لأساس الفعل الإنساني في التاريخ؛ حيث إنه يعتقد ـ بوجه عام ـ أن كل فعل بشري إنما هو فعل موجه بإرادة ورغبات صاحبه فلابد من أن يكون وراء أي فعل رغبة واهتمام، بل إنه

---

(1) نفسه، ص 102 ـ 103.

(2) انظر نفس المصدر السابق، ص 104 ـ 105.

(3) نفسه، ص 106.

يرى أن الانفعال والغايات الخاصة وإشباع الرغبات الأنانية هي أكبر منابع السلوك أثرًا وتكمن قوتها في أنها لا تعترف بالحدود والحواجز التي يفرضها عليها القانون والأخلاق[1].

إن هذه الرغبات الذاتية والاهتمامات والانفعالات الحقيقية إنما هي التعبير الحقيقي عن الحرية الفردية، وهذه الحرية ضرورة من ضروريات صنع التاريخ الإنساني، إذ إن أول نظرة إلى التاريخ ـ فيما يقول هيجل ـ تقنعنا بأن أفعال الناس تصدر عن حاجاتهم وانفعالاتهم وطبائعهم ومذاهبهم الخاصة[2].

وبالطبع فإن حديث هيجل هنا لا يعني بالقطع أن فعل البطل في التاريخ إنما هو فعل أناني لتحقيق مجرد مصلحة أو غاية شخصية للبطل، وإنما هو حديث يعني تقديره ـ بوجه عام ـ لشعور أي إنسان بحريته وبقدرته على الفعل الذي يحقق من خلال رغباته ومصالحه، وإذا كان ذلك يصدق ـ بوجه عام ـ على أفعال البشر جميعًا فهو يصدق كذلك على فعل الإنسان البطل فالبطولة فعل ينسب لصاحبه ويحقق طموحات شخصية لصاحبه، لكن السؤال هو: هل في هذه الأفعال البطولية التحقيق للمصالح والرغبات الذاتية فقط؟!

هنا يتضح موقف هيجل الحقيقي حيث إن البطل هنا لا يفعل حقيقة إلا ما كان ينبغي أن يفعله تحقيقًا للإرادة الكلية للتاريخ. إن ثمة لحظة تتوافق فيها المصلحة والرغبة والطموح الذاتي للبطل مع الإمكانات الداخلية للأحداث التاريخية (الروح الكلية) وهو يساهم بفعله وبمجهوداته الذاتية في تحقيق هذه الإمكانيات وإظهارها للوجود الفعلي، فثمة توافق إذن بين فعل هذا الفرد البطل وبين الرغبة الكلية للشعب في عصره، وهذا الفعل للبطل وتلك

(1) نفسه، ص 106.

(2) نفسه.

الرغبة الشعبية في عصره إنما فيهما وبهما يتحقق التطور التاريخي المنشود والذي تتجه الروح الكلية في التاريخ لتحقيقه وكأنه يحتاج فقط لمن يحول هذا التوجه الداخلي إلى واقع حي يعيشه هذا الفرد البطل مع من يساعدونه ويطمحون إلى الحياة معه فيه.

ثانيًا: الشعب (الجماعة) هو صانع التاريخ

على النقيض من النظرية القائلة بأن الفرد البطل هو صانع التاريخ، فإن الغالبية من فلاسفة التاريخ المعاصرين يرون أن إنجازات الشعوب والجماعة البشرية هي صناعة التقدم في التاريخ. وبالطبع فإن شيوع هذه النظرية أو تلك إنما يتوقف على نمط النظام الاجتماعي والسياسي السائد في أي مجتمع، فإذا كان النظام الاجتماعي قائمًا على التضامن الاجتماعي بين الأفراد تصبح العلاقات الاجتماعية بين أفراده أفقيه ويأمن الناس في ظل هذا النظام ويكونون أميل إلى النظرية القائلة بأن الجماعة هي صانعة التاريخ. وإذا كانت العلاقات السائدة بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع رأسية وهي كذلك في معظم عصور التاريخ القديم والوسيط فإن المؤرخين وكذلك أفراد هذه المجتمعات يميلون إلى الاعتقاد القائل بأن الفرد هو صانع التاريخ[1].

وعلى أي حال فإن معظم الحضارات الشرقية القديمة كانت أميل إلى الاعتقاد بدور البطل الحاسم في صنع التاريخ، فهكذا كان يرى المصريون في ملكهم الإله، وهكذا كان يرى أقرانهم من أهل الحضارات الشرقية القديمة والهند وفارس وبابل في ملوكهم، وانتقلت هذه الروح المحبة لصنع

(1) انظر: د. أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية 1975م، ص 75.

البطولة في الحكام والقادة العسكريين إلى الحضارة اليونانية التي قدمت لنا صورًا عديدة للإيمان بدور البطل بلغت حد التقديس والعبادة والتأليه للأبطال.

1 ـ الحضارة الإسلامية أساس التحول

أما التحول الحقيقي في هذه النظرة فكان في العصر الإسلامي الذي كان الدين الإسلامي دافعًا للمؤمنين به إلى الحد من هذه النظرة التي تقدم البطل وتؤمن بالبطولة الفردية وكان لهذا التحول أسبابه الكامنة في النصوص الدينية ذاتها، إذ تعلم المسلمون من القصص القرآني أن الدين لا السياسة هو مدار التاريخ وأن الهدف من هذا القص هو الموعظة والاعتبار، كما تعلموا كذلك من رواية الأحاديث النبوية الطريقة الصحيحة في التأريخ عن طريق التدقيق في الرواية والإسناد وليس أدل على هذه النظرة التي تنظر إلى التاريخ على أنه فعل جماعي من أن المسلمين لم ينظروا إلى الرسول ﷺ باعتباره قائدًا سياسيًا عظيمًا أو قائدًا عسكريًا ملهمًا بقدر ما نظروا إليه على أنه رسول مكلف بنقل الرسالة الإلهية إليهم، ومن ثم فقد أرخوا له كرسول وليس كقائد سياسي أو عسكري[1].

كما أن الإجماع قد عد المصدر الثالث للتشريع في الإسلام إلى جانب القرآن والسنة النبوية وفقًا لقول الرسول نفسه: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» وكان هذا مما حفز المؤرخين المسلمين على أن يهتموا بالتأريخ لفعل الجماعة المسلمة ككل وليس لأي من أفرادها مهما علا شأنه وكثرت إنجازاته لدرجة أن الخلفاء المسلمين أنفسهم قد فشلوا في أن يجعلوا تصورات المؤرخين والعلماء في شتى فروع المعرفة خاضعة لإراداتهم أو متأثرة بأفكارهم. لقد تجلت هذه النظرة الحضارية للتاريخ عند المؤرخين

---

(1) نفسه، ص 76 ـ 77.

المسلمين في مؤلفاتهم التي حملت في معظمها عناوين دالة على ذلك، فهناك طبقات الفقهاء للشيرازي ثم الشافعية للسبكي والحنابلة لأبي يعلي، وهناك طبقات المتكلمين (المعتزلة لابن المرتضي، الأشاعرة لابن عساكر) وطبقات الصوفية للسلمي وطبقات الشعراء لابن سلام، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي)[1].

وهكذا لم يتخذ المسلمون السياسة محورًا للتأريخ، بل اتخذوا الدين الأساس ونقطة الانطلاق ومن ثم انطلقوا إلى التأريخ لأعمال الأمة ممثلة في علمائها ومفكريها فهم لم يسجلوا أعمال الملوك بقدر ما سجلوا فكر العلماء والفقهاء والمحدثين والصوفية والشعراء. ولم يتصور المسلمون ومؤرخوهم أن الأمة مجموعة أصفار لا قيمة لها إلا بالواحد وهو الحاكم كما هو الحال في التصور القائم على أن التاريخ من صنع أفراد، وإنما تصوروا الحضارة الإسلامية قائمة بفكر علمائها لا بسيرة خلفائها. كان تصور المؤرخين المسلمين أن الفعالية في الحضارة الإسلامية للأمة جميعًا لا للفرد[2].

2 ـ ڤولتير يؤكد هذا التحول نحو التأريخ للحضارة

ويبدو أن هذه الرؤية التي تنسب الإنجاز الحقيقي في التاريخ للأمة أو للشعب ممثلًا في علمائه ومفكريه فقد انتقلت من مؤرخي الحضارة الإسلامية إلى الأوربيين في عصر التنوير، ففي هذا العصر الذي تمثل في القرن الثامن عشر في أوروبا أوقف ڤولتير الكثير من كتاباته على نقد تلك الرؤية التي تنسب الفعل التاريخي لأبطال الحروب والزعماء السياسيين، ففي الرسالة الثانية عشرة من رسائله الفلسفية يتحدث عن ذلك النقاش الذي

---

(1) نفسه، 78 ـ 79.

(2) نفسه، ص 81.

دار بين المجتمعين حول أي الرجال أعظم من الآخر، قيصر أو الإسكندر أو تيمورلنك أو كرومويل... إلخ؟! فأجاب بعضهم بقوله: إن إسحاق نيوتن هو أعظمهم بلا ريب[1]، وقد أيد ڤولتير هذا القول الأخير مؤكدًا أن العظمة الحقيقية إذا كانت تقوم على تلقي عبقرية جبارة من السماء وعلى الانتفاع بهذه العبقرية لتنوير الإنسان نفسه وتنوير الآخرين. فإن رجلًا مثل السيد نيوتن الذي لا يكاد لا يظهر مثله في عشرة قرون يكون العظيم ولأن هؤلاء السياسيين والفاتحين الذين لا يخلو منهم قرن ليسوا غير أشرار بالحقيقة فترانا ملزمين بإجلال ذلك الذي يسيطر على النفوس بقوة الحقيقة لا أولئك الذين يصنعون عبيدًا بالإكراه والقهر، وترانا ملزمين بتقديم احترامنا إلى ذلك الذي يعرف الكون لا أولئك الذين يشوهونه[2].

إن ڤولتير ينظر هنا إلى التاريخ فلا يرى فيه حقيقة إلا إنجازات العلماء والمفكرين وهو يثمن عاليا إنجازات رجال مثل نيوتن وبيكون ولوك ويتحدث عن هذه الإنجازات باعتبارها هي صانعة التقدم في التاريخ البشري وليس انتصارات العسكريين أو قرارات السياسيين، فمن المعروف أن ما يبنيه العلماء والمفكرون ومن يتابعونهم ويستخدمون فكرهم واختراعاتهم من البشر في قرون يهدمه هؤلاء الساسة بقراراتهم الرعناء وهؤلاء القادة العسكريون بأوامرهم الشريرة في ساعات!

إن العبقرية الحقيقية هي التي وُهِبَها هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين لا يكاد يظهر الواحد منهم إلا كل عشرة قرون ـ على حد تعبير ڤولتير ـ بينما ـ كما يقول هو أيضًا ـ لا يخلو أي قرن من القرون التي مرت على البشرية دون وجود هؤلاء الساسة والقادة، وبينما يكون فعل الأوائل بحكم عبقريتهم

(1) ڤولتير: الرسائل ا لفلسفية، الترجمة العربية لعادل زعيتر، دار المعارف بمصر، القاهرة 1959م، ص 59.
(2) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

ومواهبهم الفذة هو الإبداع واكتشاف حقائق الوجود وأسرار الكون ومن ثم صنع التقدم البشري ويكون فعل الآخرين من الساسة والقادة العسكريين هو الشر بعينه لأنهم يركزون في أفعالهم على اصطياد الأرقاء والتحكم في البشر وقهر إرادتهم.

وقد أثرت هذه الآراء لڤولتير في فلاسفة عصر التنوير وعبر عنها معظم هؤلاء الفلاسفة، فقد حفل كتاب روح القوانين لمونتسكيو بالآراء المؤيدة لذلك، إذ نجده يتحدث ـ على سبيل المثال ـ عن نظم الحكم المختلفة وكيف يتحدد وجودها تبعًا لعوامل جغرافية أو مادية أو اجتماعية أو ثقافية ومع أنه يولي في كتابه أهمية خاصة للعوامل الجغرافية ويبين أثرها على شكل المجتمع وشكل حكومته، فإنه يشير إلى أن هذه العوامل الجغرافية إن ساد تأثيرها على العوامل الثقافية أو الاجتماعية فإن هذا يعني جمود المجتمع وضعف مقدرته على التطور نظرًا لثبات العامل الجغرافي إن قيس بالعامل الثقافي[1]، ومن ثم فإن مونتسكيو يرى أن العوامل الثقافية هي بحق القادرة على أن تدفع بالتاريخ البشري إلى الإمام، وصانعو الحدث الثقافي سواء أكان علمًا أو فلسفة أو أية معرفة جدية في أي اتجاه هم صانعو التاريخ والتقدم.

3 ـ إشفيتسر يدعم هذا التوجه الحضاري

وقد تدعم هذا التوجه نحو الاهتمام بالإنجازات الحضارية العامة للشعوب والأفراد في أوروبا وخاصة لدى فلاسفة الحضارة المعاصرين ومنهم ـ بلا شك ـ ألبرت إشفيتسر صاحب كتاب فلسفة الحضارة الذي أكد بحسم أن كل تقدم إنساني إنما يتوقف على التقدم في نظريته في الكون، وعلى العكس نجد أن كل انحلال سببه انحلال مماثل في نظريته

(1) انظر: د. أحمد صبحي، نفس المرجع السابق، ص 86.

في الكون، وأن افتقارنا إلى حضارة حقيقية مرجعه إلى افتقارنا إلى نظرية في الكون[1].

إن إشفيتسر في تلك العبارة السابقة ينتقد حقيقة الحضارة الغربية؛ لأنها لم تعد تمتلك نظرية واضحة عن الكون، تتسم بالأخلاقية وهو من خلال هذا النقد يؤكد هذه الرواية التي ترى أن الأفراد والشعوب هي صانعة الحضارة والتاريخ بشرط أن يكون لدى هؤلاء الأفراد وهذه الشعوب الأساس الأخلاقي الدافع للإبداع، فالأعمال المبتكرة والفنية والعقلية والمادية لا تكشف عن آثارها ـ في رأيه ـ إلا إذا استندت الحضارة في بقائها ونمائها إلى استعداد نفسي يكون أخلاقيًا حقًا، ذلك أن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخلال حسنة[2].

إن إشفيتسر يرى أن مختلف العلاقات في المجتمع البشري تكونت تحت تأثير المعتقدات الأخلاقية على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية، وأنه إذا لم يوجد الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة حتى لو كانت العوامل العقلية والخلاقة أيًا كانت قوة طبيعتها تعمل عملها في اتجاهات أخرى، وهو يعيب على معاصريه قصور تفكيرهم في فهم حقيقة الحضارة ويطالبهم بالعودة إلى النظرة الأخلاقية التي سادت في القرن الثامن عشر (عصر التنوير)[3].

إنه يرى بكل بساطة «أن الحضارة معناها بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم من أي نوع كان في

(1) ألبرت إشفيتسر: فلسفة الحضارة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ومراجعة د. زكي نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1962م، ص 5.
(2) نفسه، ص 4.
(3) نفسه.

أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي» وهو يرى أن هذا الموقف العقلي يتضمن استعدادًا مزدوجًا. إنه يجب أولًا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيًا في العالم والحياة ويجب ثانيًا أن نكون أخلاقيين ولن نستطيع القيام بمثل هذا العمل بحيث ينتج نتائج ذات قيمة حقيقية إلا إذا كنا قادرين على أن نهب العالم والحياة معنى حقيقيًا.. إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزمًا واضحًا صادقًا على بلوغ التقدم ويكرسون أنفسهم، تبعًا لذلك، لخدمة الحياة وخدمة العالم، وفي الأخلاق وحدها نجد الدافع القوي إلى مثل هذا العمل فنتجاوز حدود وجودنا[1].

إن هذه الرؤية المؤكدة على دور الأخلاق في بناء الحضارة الإنسانية إنما تعكس إيمان صاحبها العميق بأن الفرد وحده لا يصنع شيئًا وأنه حتى الجماعة ككل إن لم تتحلَّ بالأخلاق الاجتماعية الفاضلة وبإيمان عميق بضرورة الفعل الإيجابي في الحياة لصالح الآخرين فلن يتحقق شيء ذو قيمة في العالم.

(1) نفسه، ص 5 ـ 6؛ وانظر كذلك في نفس المصدر، ص 403 ـ 405.